

دراسة الخطاب الوعظي والاعتباري في شعر أبي مسلم البهلاني؛ قراءة نسقية على ضوء آراء الغدامي

عبدان جلالى *

على خضرى (الكاتب المسؤول) **

رسول بلاوى ***

محمد جواد پورعابد ****

الملخص

يستعرض "العلاج بالمعنى" لفرانكل بمكافحة المشاكل النفسية بناءً على مبادئ يُعدّ النقد الثقافي من المناهج النقدية الحديثة التي أعطت المتلقي فرصة تحديد النص وفكّ شفراته واستنطاق ما به من معان جديدة، وهذا ما ينيط الباحث للثام عنه في الأشعار الوعظية لأبي مسلم البهلاني الذي يُعتبر من أبرز شعراء عمان، حيث جاء خطابه الاعتباري، ليبحث على عدم الركون إلى الدنيا ولزوم الحذر من الموت. ولدعواته إلى الخير واستنهاض المسلمين الأثر البالغ في أحداث تاريخ عمان الحديث، خاصة إبان حكم الإمام سالم الخروصي. اعتمد البحث على ضوء آراء الغدامي في النقد الثقافي، لاستظهار الأنساق المضمرة والمعلنة في الخطاب الوعظي للبهلاني عبر المنهج الوصفي - التحليلي في أربعة محاور وهي: النسق التوعوي من فتن الدنيا وقد حاكه البهلاني في عباءة النسق الفحولي، باخعاً نفسه في نسق انكساري وإيديولوجي. ويقرأ المتلقي في النسق الاعتباري من الموت نسقاً تحذيرياً للأنا والآخر يستقبح فيه الشاعر غفلة الناس، وفي جلده لنفسه يستشعر القارئ نسقاً عصائياً لنفس مضطربة يوثّج البهلاني فيها الانغراس بالدنيا، كما يبرز النسق الاستعلائي تجاه الآخر. وفي النسقين الأخيرين؛ الدعوة إلى الوحدة والترغيب إلى الخير أيضاً كان السياق يعبر عن نسق فحولي للأنا الخبيرة بأسباب الهزيمة عند المسلمين وقد تمّ كشف النسق الصوري عبر الصور الجمالية للتشبيه في الدراسة. يستنتج الباحث من كلّ هذه الأنساق المضمرة والمعلنة بتأثر الشاعر من الخلفية الدينية وانعكاس وطغيان هذا الاتجاه الديني على معظم ديوانه. الكلمات الدليلية: النقد الثقافي، الأنساق المضمرة، الخطاب الوعظي، أبو مسلم البهلاني.

*. طالب دكتوراه، فرع اللغة العربيّة وآدابها، جامعة خليج فارس، بوشهر، إيران

**. أستاذ مشارك اللغة العربيّة وآدابها، جامعة خليج فارس، بوشهر، إيران alikhezri@pgu.ac.ir

***. أستاذ في قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة شهيد تشمران أهواز، أهواز، إيران

****. أستاذ مشارك اللغة العربيّة وآدابها، جامعة خليج فارس، بوشهر، إيران

تاريخ القبول: ١٤٤٦/٠٨/٠٧ ق

تاريخ الاستلام: ١٤٤٦/٠٢/٠٣ ق

المقدمة

ظهر النقد الثقافي في الساحة النقدية على المستوى المعرفى والمنهجى بعد أن احتكَّ بالعديد من الحقول الثقافية والعلوم الإنسانية، فارتدى ثياباً ثقافياً ذات منظور شامل يتجاوز الاهتمام بالنص الأدبى من حيث الجمالية إلى الاهتمام بما هو محبوب بين صفحات النص من معان جديدة بوعى من المبدع حيناً، وعلى غفلة منه أحياناً كثيرة، وعلى هذا الأساس ارتأى الباحث استنطاق الخطاب الوعظى فى ديوان أبى مسلم البهلانى الذى يُعدّ من أبرز رواد الشعر العماني وقد كان له أثر واضح فى نمو الحركة الأدبية وازدهارها على الساحة العمانية وعلى نطاق البلد العربى. إنّ الخطاب الوعظى البارز والمكتفّ فى شعر البهلانى يضمّ كنوزاً زاخرةً من النصائح والمواعظ السامية والحكم المتضاهية، ممّا دفع الباحث إلى أن يقوم بقراءته وفق منظور النقد الثقافى قراءة جديدة، تُستظهر مكنوناته وتُحدّد مقاصده من أجل الوقوف على طبيعته وحفر أنساقه الثقافية المضمرّة، وتكمن أهمية هكذا دراسات فى حداثة منهج النقد الثقافى ولما تخلّقه من إشكالات فى الفكر النقدى. يشغل النسق المضمر فى الخطاب الوعظى للبهلانى بآليات مختلفة، تمكّنه من تعبئة الجمهور والتأثير على سلوكه. فإنّ تراكم الشعر الوعظى فى ديوان البهلانى يؤكّد عمق البعد الدينى فى خطابه الاعتبارى وهيمنة النزعة الدينية على خطابه الشعرى.

اعتمد البحث فى استخراجه لما توارى بداخل النص الأدبى من أنساق مطمورة أحياناً ومتبلورة فى مواضع أخرى، على ضوء آراء الغدامى فى النقد الثقافى وعبر المنهج الوصفى-التحليلى، ليكشف خفايا شعر البهلانى. جاءت الدراسة فى أربعة محاور منها: خطاب البهلانى فى النسق التوعوى المعلن من مغبة الركون إلى الدنيا، الذى يُسلّط الضوء فيه على نمط تمرير الأنساق المطموسة ويكشف للمتلقى الصورة الكاملة عن رؤية البهلانى فيما يتعلق بالمجتمع النهمك بملذات الدنيا وزخرفها. ويُستجلى فى المحور الثانى سيكولوجية البهلانى فى قضية الموت والحياة. ويأتى المحور الثالث تحت تأثير دور البهلانى السياسى ومكانته الاجتماعية حيث شهدت له قصائده الاستنهاضية فى هذا المضمار، كما أنّه تسعى الدراسة فى المحور الرابع إلى كيفية سيطرة النسق فى

دعوات الشاعر إلى القيم الأخلاقية وحثّ المجتمع إليها.

أسئلة البحث

- دفعت هذه الدراسة الباحث إلى طرح أسئلة، يروم للإجابة عنها وهي:
١. ما أبرز الأنساق المضمرة في الخطاب الوعظي لديوان أبي مسلم البهلاني؟
 ٢. كيف تجلّت غلبة النسق الانكساري على النسق الاستعلائي في النص الأدبي المروم تحليله؟
 ٣. إلى أي مدى شهد النص الأدبي دلالات النسق الفحولي والأنوى والأبوى مقابل إلغاء الآخر الغافل؟

خلفية البحث

لقد تطرّقت الدراسات السابقة إلى الخطاب الوعظي في الشعر وعالجت النصوص الاعتبارية، لكن الذي يروم إليه الباحث في هذه الدراسة هو فكّ شفرات الأشعار الوعظية في ديوان البهلاني عبر دراسة نسقية وعلى ضوء النقد الثقافي، أمّا عن شعر البهلاني وأساليبه الفنية فهناك دراسات وبحوث علمية سبقت البحث الحالي ومنها: مقال حمل عنوان "الانحراف الأسلوبى في شعر البهلاني" للباحث أحمد على محمد (٢٠٠٣م)، منشور في العدد الثالث من مجلة جامعة دمشق، سعى الباحث رصد ألوان التعبير في شعر أبي مسلم البهلاني وخلص إلى أهم ملامح الأسلوب عند البهلاني من أبرزها: عدول الشاعر ومجازة السنن المألوفة في التعبير والصيغة والانحراف عن القاعدة النحوية وبروز التكرار اللفظي النمطي والتقابلي.

مقال عنوانه "التناص القرآني في الشعر العماني الحديث للباحث ناصر جابر (٢٠٠٧م)، طُبع في العدد الرابع من مجلة جامعة النجاح للأبحاث بالأردن. جاء الباحث ببعض ما ورد من أشعار في "ديوان البهلاني" مشيراً إلى تجلّي التناص القرآني ودلالاته الفنية ومنها: إظهار الثقافة الدينية وأنّ البهلاني وُظف التناص ليشعل مخيلة القارئ ويستحضر له فضاءاً قرآنياً.

كتاب "تأثيرات أندلسية في شعر أبي مسلم الرواحي" للكاتب سمير هيكمل (٢٠١٢م)، والرواحي لقب البهلاني نسبة إلى قبيلته؛ رواحة، فقد رأى الكاتب تأثر الشاعر العماني بالشعر الأندلسي في النونية المسماة "بالفتح والرضوان في السيف والإيمان" التي عارض بها رائعة الشاعر الأندلسي أبي البقاء الرندي. اشترك الشاعران في استصراخ المسلمين ومطالبتهم بوحدة الصف ونبذ الاختلاف والتشتت.

مقال "دلالة الاستفهام في شعر أبي مسلم البهلاني" للباحثين؛ مجدى حاج إبراهيم وسعيد بن حمد بن حمود المحروقي (٢٠٢٠م)، طُبع في العدد الأول من مجلة الدراسات اللغوية والأدبية بالجزيرة. استعرض الباحثان أهم المواضع التي ورد فيها الاستفهام في الأبواب الخمسة من ديوان الشاعر وأنَّ الاستنهاض والمرائي تعدان من الأغراض الخصبة للاستفهام في "ديوان البهلاني".

وأما عن الدراسات السابقة في حقل النقد الثقافي فهناك العديد من البحوث الأكاديمية التي قامت بتشريح النص الأدبي وفق مستجدات هذا العلم الحديث، نذكر أبرزها:

مقال "الأنساق الثقافية في رواية (فالسيوم عشرة)" للباحثة؛ زينة حمزة شاكر (٢٠١٦م)، طُبع العدد ٢٩ من مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية بجامعة بابل. استنتجت الكاتبة أنَّ الراوي قد استدعى صوراً ومشاهد سرديّة، حاول من خلالها أن يكشف ما يخفيه المجتمع العراقي من أنساق مضمرة، كرّست الخطاب الديني الاجتماعي.

مقال "تلقي النص الشعري من منظور النقد الثقافي" للكاتبة؛ إبراهيمي خديجة (٢٠٢٠م)، طُبع في العدد الثاني من مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية بجامعة محمد خضير الجزائر. توصلت الباحثة إلى أنَّ النقد الثقافي يكشف عن أثر سلطة الآخر في صياغة النص وتشكيله فكرياً أو فنياً.

مقال "تمثيلات النسق في الفحولة الشعرية، قراءة نقدية ثقافية من منظور عبدالله الغدّامي" للباحثين؛ تومي سعيدة ومصطفى البشير قط (٢٠٢١م)، طُبع في العدد الأول من مجلة إشكالات اللغة والأدب بجامعة محمد بوضياف الجزائر. استخلصا إلى أنَّ

الفحولة الشعرية في عين الغدّامي، هي حالة نسبية ولا يمكن أن يُقزّم الشعر العربي بكامله في خانة التعالي واستصغار الآخر.

أمّا الجديد والملفت للانتباه في هذا البحث فهو أنّه لا توجد دراسات أخرى تناولت شعر البهلاني من منظور النقد الثقافي وفي الحقيقة قد انفرد الباحث في مراجعة ديوانه بطبعاته الثلاثة.

الإطار النظري

النقد الثقافي

يُعتبر النقد الثقافي من أبرز الدراسات النقدية التي يتطرق فيها إلى الفحوى الثقافية في النص الأدبي ويبحث عن الأنساق المضمرة وراء البناء اللغوي، محاولاً الكشف عن المغروس في لاوعي الشاعر والحفر عن دلالاته المتوارية خلف الجمالي وذلك من منطلق أنّ معنى النص يكمن في ذهنية الأنساق الدفينة فيه. يعدّ عبدالله الغدّامي من رواد النقد الثقافي في الخطاب النقدي العربي ويتمحور مشروعه حول دراسة الأنساق الثقافية العربية. يعتقد الغدّامي بأنّ النقد الأدبي قد أخفق في القبض على معان ودلالات النص الأدبي وبات عقيماً في تعامله مع النصوص ولهذا أعلن عن موت النقد الأدبي ويقول شارحاً للمتلقي عن النقد الثقافي: «هو أحد علوم اللغة وحقول الألسنية معنى بنقد الأنساق المضمرة التي ينطوي عليها الخطاب الثقافي.» (الغدّامي، ٢٠٠٥م: ٨٤-٨٣). لا يمكن فصل النقد الثقافي عن النقد الأدبي كونهما يحتويان بعضهما وغاية النقد الثقافي هي أن يقوم بتطوير وإكمال آليات النقد الأدبي. يرى الغدّامي «أنّ النقد الثقافي لن يكون إلغاءً منهجياً للنقد الأدبي» (الغدّامي، ٢٠٠٢م: ٤٧) يؤكد الغدّامي على أنّ هناك ضرورة إلى إعادة قراءة النصوص قراءة جديدة دون تقيدها بما حققه النقد الأدبي ولهذا «يسعى الغدّامي إلى تأسيس منهج نقدي عربي أصيل.» (عجيل و نرجس، ٢٠١٨م: ٢١٧). يوسّع النقد الثقافي النشاط الإنساني ليجعل نقده شاملاً لكل مناحي الحياة وهذا ما يعطى للنقد قيمةً جديدةً في فكر الغدّامي القائل بأنّ النقد الثقافي «مراجعة نقدية للممارسة النقدية الأدبية التي ستعيد مرة أخرى للنقد حيويته.»

(السماهيجي، وآخرون، ٢٠٠٣م: ١٢٤) عنصر النسق هو العنصر السابع بمثابة العمود في خيمة النقد الثقافي وقد أضافه الغدّامي إلى «العناصر الستة للغة التواصل عند جاكوبسون وهي الشفرة والسياق والرسالة والمرسل والمرسل إليه وإداة الاتصال.» (بركة، ١٩٩٣م: ٦٥)

هكذا عُرِف النسق «بأنّه نظام ينطوى على أفراد مفتعلين، تحدّد علاقتهم بعواطفهم وأدوارهم التي تتبع من الرموز المشتركة والمقرّرة ثقافياً في إطار هذا النسق» (كوزيل، ١٩٩٣م: ٤١١) فالنسق يحتوى على معان وأشكال الروابط الاجتماعية ويقوم الناقد بالكشف عن ما يحمله هذا النسق الثقافي. بعد عرض التعاريف عن النقد الثقافي، يُستنتج أنّ النقد الثقافي أحدث ثورةً في المناهج النقدية بحيث تحطّي جمالية النص إلى كشف عيوبه.

الخطاب الوعظي

اللغة الوعظية الدينية تهدف إلى بناء الإنسان والتعاطي معه ببعديه الروحي والمادى وبالتركيز على قضية الحياة والموت التي يعيشها هذا الكائن في ذاته منذ أن كان وإلى يوم يكون. جاء الشعر إلى الساحة الدينية ليكون سهيماً في هذه المهمة الشيقة ولهذا وظّف الشعراء الخطاب الوعظي لتثقيف البيئة وبسط روح الاعتاظ في المجتمع ولهذا السبب يرى النقاد «أنّ التحليل النقدي للخطاب الديني، يسعى إلى أن يحتل الدين مكانه الصحيح في المجتمع» (أبو زيد، ١٩٩٤م: ٣١) إنّ من أهم الخصائص الفنية للشعر الوعظي هو الالتزام حيث أُنخذ الشعر أداة لإصلاح المجتمع وخدمة للعقيدة التي آمن بها الشعراء وقد امتدّ هذا التأثير بوضوح في كل ثنايا الشعر الديني حيث ظهر جلياً في المضامين الدينية. وأمّا عن أسلوب الشعر الوعظي الديني فقد أثّرت الآيات القرآنية في الشعر العربي بالكثير من الكلمات الجديدة ورقت الألفاظ وأصبحت الأساليب المستخدمة أكثر عذوبة وسلاسة. أخذ الشعراء من الصور والبيان القرآني واقتبسوا من نوره، الصور التي تتّصف بالجمال وقد قيل: «يمكن أن نحس بأثر الإسلام الكبير في بناء القصيدة وفي ثقافة الشاعر التي كان يودعها أشعاره، وفي ألفاظه ومعانيه، حيث كان الشعراء يغترفون من القرآن الكريم والحديث الشريف، نصاً أو روحاً» (العاني، ١٩٩٦م:

١٧٤) وقد أدى الخطاب الوعظي دوره كأحد أهم القنوات الوسيطة التي تصل بين المنتج العلمي والفقهى والفكرى وبين الشرائح الواسعة من الأمم والمجتمعات.

الإطار التطبيقي

النسق التوعوى من فتن الدنيا

تتسم جملة أشعار البهلاني الوعظية بخصيصة الدفع والدفع المضاد التي تعتبر من أبرز سمات الخطاب الوعظي وقد أشار السفيناني في كتابه شارحاً الخطاب الوعظي: «الخطاب الوعظي خطاب قائم على قوة الدفع باتجاهين متضادين (الأمر-النهي) فالأول دفع نحو الفعل والآخر دفع معاكس نحو الترك» (السفيناني، ٢٠١٤م: ٦٩) قد جاء البهلاني بخطابه الوعظي يأمر تارة وينهى تارة أخرى والرؤية الدينية التي كان يتمتع بها جعلته يحرص على القيام بدوره التوعوى مما يعطى انطباعاً بأنّ الأنا المدركة والواعية لحقيقة الدنيا هي البارزة فيما وراء كل عظات الشاعر وتوجيهاته الإرشادية، وتشير الدراسات في حقل النقد الثقافى أنّ «العامة يقعون في الأنا مع استعاذتهم منها وهو فعل من حيل الثقافة وفحوليتها.» (السماهيجي وآخرون، ٢٠٠٣م: ١٠) إنّ الأنا الزاهدة للدنيا الفانية عند البهلاني هي التي تعكس مدى تأثير القيم الأخلاقية في شعره. تُعتبر القيم الأخلاقية؛ الحافز الرئيسى لهدى المجتمع إلى التهذيب والإصلاح والتألق الشخصى والاجتماعى والدينى والديوى، ومن أبرز هذه القيم، خصيصة الزهد التي أثّرت بطبيعتها على الحقل الأدبى لأنّها «ظاهرة نفسية كان لها أثر كبير في الشعر العربى.» (محمد، ١٩٨٧م: ٥) وقد ساهم الشعر العربى فى إرشاد المجتمع إلى النبل السامية وذلك عبر التّغريب إلى التعفّف والتزهد والتّنسك والانعزال عن الدنيا وكانت هذه الفكرة تتفق مع النزعة الزهدية لدى البهلاني فقد انعكست على شعره، تمحور الشق الوعظي في ديوانه حول عدّة أنساق ومن أبرزها النسق الدينى فكانت من جملة ركائزه؛ ذمّ مفاتن الدنيا وزخرفها وعدم الركون إليها ولزوم الحذر منها فلطالما حدّر الشاعر فى كثير من قصائده الوعظية من مغبّة الغفلة والتهاون فى هذا الصدد ومنها:

نُزاعُ أياَمنا صَفوها وَمَا لِلصَّفاءِ بِهَا وَاجِدَه
عَلامَ التَّهافتُ في حائِلٍ وَقَدْ عَلِقَ القَيْدُ بِالآبِدَه
وإنَّ حَياءَ إلی مُنْتَهی خِیالٌ یُجولُ بِلا فائِدَه

(البهلاني، ٢٠١٥م، ج ١: ٣٥٠-٣٤٨)

الثيمة الرئيسة في هذه الأبيات هو عدم وفاء الدنيا وتكالب بنى البشر عليها وهو النسق المعلن، أما النسق المضمّر في هذا النص فهو إشكالية الاضطرابات النفسية والتفكك الاجتماعي التي تعانيه الطبقات المختلفة في تنافسها على هذه الحياة الدنيا الخادعة لهم ببريقها وزخرفها وبواعث فتنها. بإمكان الناقد أن يضع النص في دائرة أوسع شمولاً حيث «يعمل النقد الثقافي على مهاد متّسع من منجزات وتطورات العلوم الاجتماعية والإنسانيات.» (قنصوة، ٢٠٠٧م: ٦) ولهذا يمكن أن يقرأ في ما وراء السطور والأنساق المطمورة، قضايا ودلالات تحكى عن انشغالات الشاعر بالمجتمع الذي كان يعظه، كما يستشف الباحث تحت قناع هذه الأبيات وعبر التحديق في دائرة الشاعر الثقافية، شعوراً بحبيّة أمل صادمة من عدم وفاء الدنيا، كما أنّه يُلحظ في النص، المعنى الظاهري للنسق الوعظي وفي الوقت نفسه هناك أنساقاً مضمرة منها النسق الأنوي والنسق الأبوي في آن واحد، حيث يضع البهلاني نفسه موضع العالم بعواقب الأمور الذي يقوم بدور المحذّر للآخرين من أجل أن يتّعظوا وبالطبع تقع هذه الدلالة النسقية ضمن إطار النسق الفحولي الذي «يعزز مفهوم التسلّط والتعالى الفردى ويدفع إلى طغيان الذات المفردة والأنا المتوحدة.» (الغذامي، ٢٠٠٥م: ٢٥١) فبالكشف عن هذه الأنساق المضمرة والدلالات النسقية، تظهر خلجات الشاعر عن قصد أو دون ذلك للمتلقي إذا كان يحمل مهارة التمعّن والقدرة على الكشف حتى تمكنه من الإمساك بهذه الخلجات وأنساقها الدفينة واستنباطها. يبدى الشاعر في الأبيات التالية، النسق الإيديولوجي من خلال هيمنة فكرته العقائدية في ذم المكبّين على الدنيا، إمّا عن عدم اعتقادهم بزوالها وإمّا عن ضعف إيمانهم وانحداعهم بها:

تُكَبُّ عَلَى دُنْيَاكَ وَهِيَ تَبِيدُ وَتَفْتَقِدُ النَّائِي وَأَنْتَ فَقِيدُ
حَرِيصاً عَلَيْهَا جَامِعاً لِحُطَامِهَا وَغَايَةً مَا نَافَسَتْ فِيهِ نُفُودُ

تَعَزَّ عَنِ الدُّنْيَا وَأَيَّقِنِ بِأَنَّهَا لَيْمَمَةٌ طَبَعَ فِي الْهَبَاتِ تَعُودُ
وَأَنَّكَ إِنْ تَسْكُنَ إِلَيْهَا تَرْكُتَهَا وَلَيْسَ بِهَا مِمَّا تَرْكُتَ حَمِيدُ
تُغْنِيكَ بِالْأَمَالِ وَهِيَ شَحِيحَةٌ وَتُعْطِيكَ لِيْنَ الْقَوْلِ وَهِيَ حَقُودُ
وَلَوْ صَدَقْتَ فَالْصَّدْقُ فِي طَيِّ كَذِبِهَا إِذَا عَاهَدْتَ بِالْوَعْدِ فَهَوَ وَعِيدُ
وَفِي هَذِهِ الْحَالَاتِ تَحْذِيرٌ مُبْصِرٌ وَخَصْمٌ إِذَا فَكَّرْتَ فِيهِ وَدُودُ

(البهلاني، ٢٠١٥م، ج ١: ٢٦٣-٢٦٠)

يحمل النص في طياته نسقاً ذا بعد وعظي وأخلاقي، يجعل الدنيا محلَّ غدر وفناء ويحرص على تجسيدها للآخر كما تريد منه الأنا المتعالية المترفعة للذات. لقد صرح الغدامي أن «كلَّ خطاب يحمل نسقين أحدهما واع والآخر مضمر وهذا يشمل كلَّ أنواع الخطاب الأدبي منها وغير الأدبي.» (الغدامي واصطيف، ٢٠٠٤م: ٣١) ومن هذا المنطلق يُقرأ في هذا الشاهد الشعري نسقاً دينياً معلناً ونسقاً مضمراً مبطناً في ما وراء منويات الشاعر بالحطّ من الآخر وتهاونه في التعامل مع الدنيا. إذا ما تعمّق المتلقي في النص لكشف عن أنّ الشاعر يشير إلى واقع اجتماعي مرير من حيث يشعر أو لا يشعر، ألا وهو الانبهار بالحياة الفانية والانخداع بزخرفها وبريقها المغري. يلاحظ في هذه المقطوعة من الأبيات تحذير البهلاني لللاهئ بملذّات الدنيا وفي سياق النسق المضمر لأننا المنذر الواعي، مقابل الآخر الغافل. يحاول الشاعر أن يطرح معتقده الإيديولوجي عن طريق إثبات اعتبارية الاعتماد على الدنيا وتسريب النسق الإيديولوجي على مستوى الأفكار والأنساق الثقافية التي تُعدّ من مهام النقد الثقافي حيث يتمّ الكشف عن تلك الخطابات العقائدية لأغراض إيديولوجية وتُقرأ الأبيات التالية في هذا السياق:

سَنَتْرُكُهَا بِالرَّغْمِ وَهِيَ حَبِيبَةٌ وَرُبَّ حَبِيبٍ لِلنَّفُوسِ مُبِيرُ
وَمِنْ عَجَبٍ مِثْلُ النَّفُوسِ لِعَاجِلِ يُحُولُ عَلَى أَكْدَارِهِ وَيَبُورُ
وَتَلْكَ ثَمَارُ الْجَهْلِ وَالْجَهْلُ مَرْتَعٌ وَخَيْمٌ وَدَاءٌ لِلنَّفُوسِ عَقُورُ

(البهلاني، ٢٠١٥م، ج ١: ٤٠٨-٤٠٥)

يمكن إدراج اهتمام الشاعر في إيصال ممارساته الثقافية بأنساقها الحاكمة دينياً

إلى المجتمع، في دائرة النشاط الثقافي الذى يتبناه النقد الثقافى فى تكوينه المفهومى باعتباره واسع المساحة، ميدانه النشاط الإنسانى فى المجتمعات كافة، وعلماً بأنَّ «محاولة كشف مكان من النسق المضر فى الذهنية التى تتعامل مع النص الدينى لقضية شديدة الحساسية ولعل اقتحام النقد الثقافى لهذه المنطقة لأمر ملغوم بالمخاطر» (المصباحى، ٢٠١٥م: ٧١) ولهذا نسعى وفى كل حفر عن الأنساق الدفينة أن نأخذ بعين الاعتبار مدى تأثير السيكلوجية الدينية على قلم البهلانى، فمثلاً تضعنا الآيات أمام قراءة عن الحاضنة الثقافية التى يشترك بها الشاعر حيث وعى الشخصية لذاتها ومجتمعها من خلال البوح عن الإشكالات الثقافية الموجودة فى المجتمع حيث يرمز فيها إلى نسق العيشية ومركزية اللاجدوى فى ما يتعلق بالتمسك فى الدنيا ويتكرر الموضوع نفسه فى هذا المقطوع الشعرى:

مَاذَا يُغُرُّ الْمَرْءُ مِنْ مَحْيَاهُ فِي دُنْيَاهُ وَهِيَ قَرَارَةُ الْكُذَارِ
يَتَسَاقُطُ الْمَغْرُورُ فِي لَهَوَاتِهَا تَفْرِيهِ بِالْأَنْيَابِ وَالْأَظْفَارِ
كَشَفَتْ سَرَائِرَهَا وَنَادَتْ جَهْرَةً بِعُيُوبِهَا فِي سَائِرِ الْأَعْصَارِ
يَتَهَافَتُ الْعَمَّارُ فِي هَلَكَاتِهَا فَعَلَ الْفَرَّاشُ عَلَى لَهَبِ النَّارِ
نَصَبَتْ حِبَالَتَهَا وَأَنْذَرَتْ الرَّدَى وَكَانَتْ صُؤْمٌ عَنِ الْإِنْذَارِ
(البهلانى، ٢٠١٥م، ج ١: ٤٩١-٤٩٠)

يستغرب الشاعر من انغراس الإنسان فى هذه الدنيا، والحال أن كلَّ ما فيها إلى زوال، ثمَّ يشبَّهها بمفترس يقطع بأنياه وأظفاره كل مفتون فى ملاهيها. وعنده هولاء كالفرش الذى يتهاوى على النار وفيها هلاكه. وأنَّ الدنيا نصبت المصائد للناس، وبيّنت أنَّ فيها الرَّدَى، وحذرتهم من ذلك ولكن رغم كلِّ هذا تراهم يتهافون عليها وكأنَّهم لا يسمعون هذا التحذير وذاك الإنذار. يظهر البهلانى عبر ما سُرد للمتلقى من مقطوعات شعرية اتعاطية وعلى سياق النسق المعلن، فى زىِّ الحكيم الذى دأب على إعطاء وصفة تعالج أمراض المجتمع المغتر بزخارف الدنيا حيث يكشف المتلقى الحذق، الأنساق الفحولية والأثوية والأبوية النصوحة إلى الآخر اللاهى، سارية فى ثنايا كلِّ شطر وعطى. يعثر الباحث فى مآرب الشاعر المعلن منها والمطمورة، على نسق مضر فى مخيلة الكاتب

وهو نسق التذمّر من تهافت الإنسان على حطام الدنيا رغم زوالها وعدم وفائها.

النسق الاعتباري من الموت

إذا نظر المتلقى إلى الخطاب الشعري المروم تحليله، وجد أنّ للنص قراءاته المتعددة حيث بإمكان المتلقى الفطن أن يغوص في ما وراء منويات الكاتب و«يستطيع النص الأدبي أن يمارس وظيفته ويكون النص الواحد آلاًفاً من النصوص، لأنّ لكل قراءة أثراً يختلف عن أثر القراءة الأخرى.» (الغدّامي، ٢٠٠٦م: ٢٠) وهذا كان باعثاً حتى نقرأ النص من عدّة زوايا منها ما يشمل الأنساق القصديّة المعلنة للكاتب والأخرى المضمرّة التي تسرّبت في مكونات النص دون شعور المؤلّف أو حتى بعلمه. فلا بدّ أن يُستثمر النص حسب هذه الحقيقة «أنّ النصوص الأدبية في غالبها نصوص معطاء منتجة وقليل منها العقيم، هذا إذا سلمنا من عقم القراءة.» (الغدّامي، ١٩٩٣م: ١١٣) إنّ السيכולوجية الدينية التي كان يمتلكها البهلاني أعطت أشعاره صبغة دينية بامتياز وجعلته يقف عند قضية الحياة والموت وقفة المتّعظ. يذكرّ الشاعر بأنّ الإنسان يعيش في هذه الحياة على أمل أن يتمتّع بِلذات الدنيا وأن يستثمر من طيها لكنّه يأتي الموت فيكون فيصلاً بين أهلها وكلّ ما يطمحون إليه. لقد جاءت هذه العبارات في شرح نظرة البهلاني عن الحياة والموت: «حاول الشاعر أن يقدّم صورة عن الحياة والموت مستوحاة من تأملاته فيها مصبوغة بروح دينية يذكرّ الناس بحقيقة الموت وكعادة الشاعر نرى إنّهُ ينعي التمسك بهذه الحياة والمنية راصدة وأسهمها صادرة واردة وآساد الآجال حارّة ومناجلها حاصدة. يلوم من ينشد صفاء العيش وطيب الحياة بينما الموت يحارب هذا الصفاء وهذا الطيب.» (السالمي، ٢٠١٢م: ١٠١) قد شحن البهلاني أشعاره الوعظية، روح الاعتبار قاصداً من وراءها أن يعطى دروساً لمخاطبيه في هذا الصدد فيعظ ناشداً:

سَيُوقِظُنِي مِنْ رَقْدَةِ اللَّهِو نَاعِبٌ	يُحِطُ بِمَحْتُومِ الرَّدَى وَيَطِيرُ
أَتَمَرُحُ إِنْ شَاهَدْتُ نَعْشاً هَالِكِ	إِلَيْكَ أَكْفُ الْحَامِلِينَ تُشِيرُ
سَتَرَكَبُ ذَاكَ الْمَرْكَبَ الْوَعْرَ سَاعَةً	إِلَى حَيْثُ سَارَ الْأَوَّلُونَ تَسِيرُ
لِيَ الْوَيْلُ هَلَّا أَرَعَوِي عَنْ مَهَالِكِي	أَمَا فِي الْمَنَايَا وَاعِظُ وَنَذِيرُ

أما في عَوِيلِ النَّائِحَاتِ مُذَكَّرٌ أَمِ النَّوْحِ حَوْلَى والبُكَاءِ صَفِيرُ

(البهلاى، ٢٠١٥م، ج ١: ٤٠٦-٤٠٤)

يُحذِّرُ البهلاى وعبر النسق الأنوى نفسه بأنَّ هذا الذى سيوقفه عن اللهو بملذات الدنيا هو صوت أشبه بصوت الغراب النذير بالشؤم وهو الردى، فشبه الموت بطائر يطير ويحط. وفي كلِّ هذا السياق هناك نسق اعتبارى مطمور، يذكر الآخر مؤكِّداً أنَّه سوف يركب هذا النعش وسيحمل كما حُمِّلَ السابقون. يرى العجب كلَّ العجب فى نسيان الموت وأنَّ صياح اللائى فُجِعْنَ بالأصحاب تذكرة للإنسان وكأنَّه يستنكر على هؤلاء الذين لا يتذكرون صياح النائحات هل هؤلاء يحسبون هذا الصَّوت إنَّما هو صفير فهم يتلذذون به؟! يبرز النسق الدينى بثوبه الوعظى واضحاً باستعمال الشاعر الكثير من المفردات الوعظية والتوعوية البارزة فى قصيدته، ولعلَّ سبب ذلك يعود إلى ثقافته الدينية التى هيمنت على ذاكرته فضلاً عن أنَّه كان مستوعباً لتلك الثقافة المتراكمة فى مخيلته الشعرية، والتى انعكست إيجاباً على نصه الإبداعى فوظفها بخصوصية دلالية، وساقها عنصراً فنياً مهماً فى بناء النص، زيادة على ذلك أنَّ ثقافته الدينية هذه أسهمت فى إعلاء شأن النص وزادت من قيمته فى توصيل المعنى إلى المتلقى. يستمر البهلاى فى تحذيراته الوعظية منبهاً كلَّ من يقف موقف الغافل عن حقيقة الموت ويراه الباحث فى هذه الأبيات كيف يحثُّ على اليقظة قائلاً:

أَلَا تَرَعَوِى والنَّوْحُ فى كُلِّ مَنَزَلٍ وَمَنْ عَشَّتْ فِيهِمْ فاقِدٌ وفقيدٌ
أَلَا تَرَعَوِى والدُّورُ أَقَوْتُ وأهلها لَهُمْ شُقَّقْتُ فوق اللُّحُودِ لِحودٌ
أَلَسْتُ تَرَى الغاراتِ شُنَّتْ رعاها عَلَيْهِم أودى والدٌ ووليدٌ
أَلَا كُلُّ حَيٍّ فى يَدِ الموتِ حاصِلٌ فَمَاذَا بُكَاءُ الفاقدينَ يَفِيدُ

(البهلاى، ٢٠١٥م، ج ١: ٢٦٩-٢٦٣)

لا يمكن أن يلمس الباحث الأنساق المضمرة بسهولة إلَّا بالقراءة الفاحصة المتبحرة من أجل كشف هذه الأنساق وبروزها للآخر «وما دور الناقد إلَّا الخوض والتنقيب لبيان جوهر الخطاب وعمله وكيف ينتج.» (عبدالله، ٢٠١٣م: ١٩) ويستشف المتلقى بإنعام النظر فى النص نسقين: أحدهما ظاهر ومعلن ويتمثل فى مزج المعانى الدينية

بغرض التحذير مما أضفى على النص وأكسبه قيمة بلاغية وجمالية وفي قوله: (أَلَا كُلُّ حَيٍّ فِي يَدِ الْمَوْتِ حَاصِلٌ) يجد الباحث جملة ثقافية وهي تعدُّ من ركائز النقد الثقافي عند الغدامي، لكن هذا النسق المعلن في الخطاب ليس إلا قناع يوارى خلفه نسقاً آخرًا خفيًا، فقد عوّل البهلاني على تبنى النسق الفحولي من أجل إثبات أحقيته في تولّى سلطة الأنا الواعظ وهذا يبرز في سياق الإفعال التي وظّفها كقوله: (أَلَا ترعوى وألست ترى) ويطغى هذا النسق على البيئة العميقة للنص في ثقافة الفحولة. النسق الديني المعلن في الخطاب والذي تمثله المعاني الدينية، ما هو إلا تمويه وتعميه عن نسق الفحولة التي يكمن في طريقة إلقاء الخطاب من الأنا الواعظ اليقظ مقابل الآخر الغافل الذي يحتاج إلى يوقظه من غفلته القابع تحتها. وهذا النسق الفحولي القائم على إلغاء الآخر وتهميشه يظهر هنا منذ بداية المقطع الشعري لأنّ الشاعر جعل من نفسه الشخص اليقظ الذي ترعوى نفسه حتمية الموت ولكن نظراً لغفلة الآخر عن هذه القضية المحتومة، أتى بأسلوب استفهامي استنكاري يخاطب به الآخر الذي جعله في دوامة مستمرة من الغفلة ليبين للمتلقى أنّ الشاعر يمتلك ثقافة عالية تجعل من خطابه خطاباً مهميناً صادراً عن ذات تلغى اليقظة والإرادة في وجود الآخر وتراها مهمشة. في هذه الأسطر الشعرية يلحظ القارئ أنّ ثمة اعتداد بالنفس يتمثل في ما تبوح به من دلالات، وأنّ هذا الفخر إنماز بأنه أخذ دور الواعي بنسق فحولي أنوى أبوى للآخر الغافل اللاهني. يستثمر البهلاني من قضية الموت والحياة حتى يشبع غريزته الدعوية التربوية ولهذا نراه يغوص في أعماق النفوس النائمة التي جعلت في آذانها وقرأ كي لا تسمع الحقيقة ولا تتعظ بها فيذكرها بحقيقة الموت قائلاً:

عَشْ مَا تَشَاءُ وَرَاقِبْ فَجَعَةَ الْأَجَلِ	سَيَقْضِي الْعُمُرُ فِي بَطْءٍ وَفِي عَجَلٍ
مَا بَالُنَا وَمَطَايَا الْمَوْتِ تَنْقَلِنَا	نَلْهُو بِمَا قِيلَ "إِنَّ الْعِزَّ فِي الثُّقُلِ"
حَتَّى مَتَى وَالْآجَالُ تَحْفَزُنَا	وَالْجِدُّ وَالْهَزْلُ مَنَا تَابِعُ الْأَمَلِ
نَرَى مَصَارِعَ قَوْمٍ جَلَّ فَقْدُهُمْ	كَفَقَدْنَا فِي الْمَلَاهِي صَالِحَ الْعَمَلِ
كَأَنَّنا فِي أَمَانٍ مِنْ مَصَارِعِهِمْ	أَوِ الْمَنَايَا عَنِ الْأَحْيَاءِ فِي كَسَلِ
كَلَّا وَلَكِنَّهُمْ صَارُوا لَنَا فَرَطًا	وَالرَّكْبُ مُرْتَحِلٌ فِي إِثْرِ مُرْتَحِلِ

فى كُلِّ نَادٍ نِدَاءُ الْمَوْتِ مُصْطَخِبٌ وَكُلُّ دَارٍ بِهَا دَوْرٌ مِنَ الْأَجَلِ
(البهلانى، ٢٠١٥م، ج٢: ٧٠٠-٦٩٠)

يضع البهلانى المتلقى أمام حقيقة محتومة وهى أَنَّ الإنسان يعيش فى هذه الدنيا ويعمل فيها كما يشاء لكن عليه أن يتذكر بأنَّ هناك مصيبة موجعة تنتظره فلا بدَّ من مراقبتها والاستعداد لها وأنَّ العمر فى نهاية الطاف سينتهى عاجلاً أم آجلاً. يكشف عن خصيصة وهى أَنَّ المرء دوماً فى هذه الدنيا يُعْظَمُ فقده للأشياء، إمَّا أن يكون فقده لرجال صالحين وإمَّا أن يفقد أعماله الصالحة فى ملاهيه، فالدنيا دار فناء ويرى الناس يموتون أمامه. يعبرُ الشاعر عن دهشته من حال الناس الذين يعيشون وكأنَّهم آمنوا الموت فلن يبلغهم الموت الذى بلغ الآخرين وكأنَّ المنايا لا تقترب منهم ولا تنوى القضاء عليهم ويردُّ على هذا الزعم بلفظ الزجر وهو "كَلَّا" يرى أنَّهم هم السابقون ونحن سنلحقهم فالركب يرتحل بعد الركب الأول والحيل يتَّبِع من سبقه فما أصابهم سيصيبنا لا محالة. يأتى توظيف البهلانى للمفردات التحذيرية كما أشير سابقاً فى شعره بوساطة الأنساق التى يستعملها المقصودة منها وغير المقصودة، فى ما يُعَدُّ نسقاً أيديولوجياً واضحاً وبارزاً يتجلّى فى أسلوبه غير المباشر المؤطر بمؤطرات جمالية، وهنا تبرز بصورة مهيمنة مهمة النقد الثقافى، لأنَّ الشاعر قد أطر القصيدة بذكر الموت فى حين أنَّ هذه القصيدة تحمل دلالات وأنساقاً أخرى منها؛ أنَّ الشاعر أصاب بها نقداً للواقع الاجتماعى وخطأً للجانب الآخر الغافل اللاهى عن ذكر الموت ولذلك جعله مهمّشاً عبر أفعاله اللاهية اللاغية التى قد تؤدّى به إلى الضياع، وهذا النقد الاجتماعى للأوضاع الراهنة والمسايرة لعصره تجلّت بنقده للنفوس الغافلة اللاتى لم تتعظ بما تراه من أسباب العظة واليقظة. تميّز البهلانى فى أسلوبه الشعرى بالتركيز على النمط الإرشادى وقد عبّر عن مكنونه وسعى أن يؤدّى رسالته التوجيهية الإرشادية. يشير الشاعر فى كثير من الأبيات التى تحمل قضية الموت والحياة إلى فكرة حتمية انقضاء الأجل ونهاية الحياة وفى هذا المعنى قوله:

أَمَا تَرَعَوِى فِى مَرَاغِى الْغُرُورِ وَصَائِدَةُ الْمُنْتَهَى رَاصِدَةٌ
تَعِيشُ بِهَا بَيْنَ مَفْقُودَةٍ وَرَاقِبَةٍ حَتْفَهَا فَاقِدَةٌ

وَنَسَى الْمَنَايَا وَقَدْ أَنْفَذْتُ مَقَاتِلَنَا الْأَسْهُمُ الصَّادِرَةَ
نَرُوحُ وَنَعْدُو عَلَى مَأْمَنٍ وَأَسَادُ آجَالَنَا حَارِدَةً
وَتَنْعَى الْجَنَائِزُ أَرْوَاحَنَا وَدَمْعَةُ أَعْيُنِنَا جَامِدَةً
(البهلاني، ٢٠١٥م، ج ١: ٣٤٨-٣٤٧)

يخاطب الآخر الذي يراه غافلاً عن حقيقة الحياة والموت ثم يذكره بالرجوع إلى الله وأنَّ الموت لا مفر منه. وأنه مثل الصائد الذي يرصد فريسته حتى إذا وصل الأجل انقضَّ عليها. يوظف الأسلوب البلاغي ويشبه الموت بالأسد الذي قطع الطريق أمامنا واستعدَّ للانقضاض علينا ونحن لا نستطيع أن نفرَّ منه ورغم ذلك نحسُّ بالأمن والطمأنينة. تحتفي هذه الأسطر الشعرية بالنسق الانكساري الذي ينبع عن نفس الشاعر التي طغى عليها البعد الاعتباري من قضية حتمية الموت وانقضاء الأجل. إنَّ الشاعر قد وجَّه خطابه نحو التحذير واللوم لنفسه والآخر وهذا ما إذا أنعم النظر في النص يكشف عن النسق الأنوي والنسق الآخر إذ الشاعر يقوم بتوزيع الملامة على كل نسق بالسوية التامة وحين يدقق الباحث ويتمنَّ مرة أخرى وأخرى في لغة القصيدة يجد ألفاظاً لامست النسق الاعتباري والوعظي وأقرَّت بالموت حتمياً في نهاية المطاف، بل إنَّ الشاعر صار يهيئ لنفسه والآخر استعداداً للموت الذي لا بدَّ منه. يضع البهلاني أحياناً نفسه موضع الغافل اللاهي وفي نسق انكساري يُستنتج من وراء روح متواضعة تكثر من جلد نفسها. لقد وُظف الشاعر عبارات كقوله (سيوقظني ناعب) و (لى الويل هلا أرعوى) ليؤكد على وجود نسق تحذيري يلوم فيه نفسه على غفلتها وقلة اعتبارها بما تراه من مواقف العظة والاعتبار. توجيه الخطاب إلى الآخر سمة بارزة كانت جلية في كثير من مواعظ البهلاني. يعتب على الآخر، غفلته عبر تكرار قوله: (ألا ترعوى) و(ألسَ ترى) و(ألمرُحُ إن شاهدتَ نعشاً) و(ستركبُ ذا المركب)، كل هذه التوظيفات اللغوية تنم عن وجود نسق فحولي استعلائي في مكنون وقرارة الشاعر، يفوح بعد الحفر والتدقيق في طيَّات النص.

نسق الدعوة إلى الوحدة ونبذ الفرقة

كان البهلاني حاضراً في أحداث وطنه الأم؛ عمان رغم تواجده في زنجبار شرق إفريقيا ونظراً للمكانة الاجتماعية التي حظى بها وسط أبناء وطنه، سعى على إرساء الوحدة وبث روح التعاضد والحمية فيهم وخاصة في فترة إمامة الشيخ سالم بن راشد الخروصي سنة ١٩١٣م، على عمان وقد جاء القول في دور البهلاني في لم شعث أهله على أنه «كان يرسل قصائده الواحدة تلو الأخرى لمعاودة الإمام سالم ويستصرخ القبائل العربية لمناصرته حتى لقبه بعض الكتاب بشاعر دولة الإمامة.» (المحروقي، ٢٠٠٠م: ١٩) يرى الشاعر نفسه تحمل وعياً كافياً من العقيدة والرؤية والثقافة الإسلامية ما تحوّل وتمكّنه من دعوة المسلمين إلى الوحدة وكشف خبايا المستعمر وتشخيص حقيقة الصراع معه ومعرفة أسباب الهزيمة وبواعث القوة والانتصار والعمل على استنهاض الهمم وفق رؤية إسلامية وعبر نسق فحولي للأنا الواعية ومن جملة دعواته قوله:

يَا قَوْمِي أَهْلَ عَمَانَ كَمْ تَخَالَفُكُمْ إِنَّ التَّفَرُّقَ لَا يَرْضَاهُ إِيْمَانُ
مَاذَا الشَّقَاقُ الَّذِي يَفْرِى جَنُوبَكُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ بِذَاتِ الدِّينِ إِخْوَانُ
أَطْلَقْتُمُ السَّيْفَ فِي أَفْرَادِ مِلَّتِكُمْ وَقَيَّدْتُهُ عَنِ الْأَعْدَاءِ أَجْفَانُ
هَبْ أَنْ أَسِيَا فِكُمْ غَرَثِي بِهَا قَرْمٌ فَفِي لَحُومِ الْعَدَا يَعْتَا شُ غَرَثَانُ
هَانَتْ عَلَيْكُمْ تُرَاثُ الْكُفْرِ وَاشْتَعَلَتْ فَيَكُمُ عَلَى بَعْضِكُمْ لِلْبَعْضِ أَضْغَانُ
(البهلاني، ٢٠١٥م، ج ٢: ١٠٥٨-١٠٥٦)

يخاطب البهلاني في هذه المقطوعة الشعرية التي بُثرت من قصيدة "يا للرجال"، أهل عمان الذين عصفت بهم الفتنة في ذلك الوقت وتفرّقوا إلى أحزاب متناحرة. يحثّهم الشاعر على الوحدة ويلومهم على اختلافهم وتناحرهم فلا يمكن للمؤمن أن يبقى في حالة صراع مع أخيه المؤمن ويناشدهم أن يطهروا قلوبهم من العصبية والفرقة أن كان عندهم إيمان وأن يعملوا بأوامر الله وينتهوا عن نواهيهِ. يستنكر شقاقهم ويناديهم أن يقضوا على هذا الخلاف الذي قطع أوصالهم والأصل في المؤمنين أن يكونوا إخواناً متحابين لا يتقاتلون بل يتحدون في قتال الأعداء. يقبّح الشاعر قتال المسلمين فيما بينهم ويتأسف أنّهم استخدموا سيوفهم وأطلقوها في محاربة بعضهم بعضاً ليفنوا بها المؤمنين وإذا جاء القتال على الأعداء فلا يخرجوها بل يقيّدوها بهذه الأغمد التي

صنعوها لها. ثم يسعى ليوجّه حماسهم في سبيل مقارعة الخصوم.

يرى المتمعن في النص توظيف البهلاني للنسق الصوري المعلن حيث شبه السيف بالرجل الجائع شديد الجوع الذي به حاجة لأكل اللحم وهذه استعارة مكنية إذ أنه حذف المشبه به. ثم يلوم المسلمين باستغراب على عدم القضاء على موروثات الكفار وأنهم استهانوا بها وهي التي كانت خطيرة تستحق أن يقضى عليها، فاشتغلوا بقتال بعضهم بعضاً واشتعلت في قلوبهم العداوة والبغضاء.

يستعرض الباحث في شاهد آخر حرص البهلاني على لم شمل المسلمين قائلاً:

أَفِيقُوا بَنَى الْقُرْآنِ إِنَّ كِتَابَكُمْ يُنَاقِضُ فِي أَحْكَامِهِ وَيُنَازِعُ
وَمَا الدِّينُ إِلَّا وَاحِدٌ وَالَّذِي نَرَى ضَلَالَاتُ أَتْبَاعِ الْهَوَى تَتَقَارِعُ
فِيَا لَيْتَ أَهْلَ الدِّينِ لَمْ يَتَفَرَّقُوا وَلَيْتَ نِظَامَ الدِّينِ لِلْكَلِّ جَامِعُ
وَمَا ذَبَحَ الْإِسْلَامَ إِلَّا سَيُوفُنَا وَقَدْ جَعَلْتُ فِي نَفْسِهَا تَتَقَارِعُ
عَلَى أَى شَيْءٍ يَقْتُلُ الْبَعْضُ بَعْضَنَا وَتُذَكِّي فُظَاظَاتِ النَّفُوسِ الْمَطَامِعُ

(البهلاني، ١٩٨٧م: ٢٧)

يكشف البهلاني عن الدسائس التي تحاك لتشويه سمعة الإسلام فيدعو المسلمين أن ينهضوا ويتبعوا تعاليم القرآن وأن يقوموا للدفاع عن كتابهم الذي يناقض الآن، ليس بعدم تطبيق أوامره فقط، وإنما بالتشكيك في أحكامه واتهامه بالنقص والخطأ وعدم مناسبته للعصرنة المتطورة، يحثهم على التمسك بتعاليمه والزّد على هذه الدعوى. يرى البهلاني أنّ الدين الإسلامي دين واحد يتّبع أصحابه القرآن والسنة، وما يراه من تحارب أهل المذاهب ومعاداة بعضهم لبعض فإنما هو من التّكالب على الدنيا ومن الرّغبة في نيل مطامعها وإشباع الهوى. كان يتمنى الشاعر ألا يفترق المسلمون وألا يتوزّعوا إلى مذاهب متناحرة، يرجو رجوعهم جميعاً في كنف الإسلام وتحت راية واحدة دون تشتّت وعندها تكون القوة عندهم ولا يمكن هزيمتهم. يعتقد أنّ الذى قضى على الإسلام هو تناحرهم وتفرّقهم وأنّ السيوف التي في أيديهم ويتقاتلون بها هي التي مكّنت الأعداء من القضاء عليهم. ثم يتساءل لماذا يقتل بعضهم بعضاً ولماذا تشعل مطامع البغضاء في قلوبهم على إخوانهم، وهذا الاستفهام المقصود به هو الإنكار على المسلمين

إذ وصلت حالتهم إلى هذه الحالة.

يؤكد النقد الثقافي على أن يكون النص الأدبي شعبياً وجماعياً وقد لاقت أشعار البهلاني كل الاهتمام من قبل شعب عمان وكان لقصائده الوعظية الأثر البالغ في توجيه الأمة إلى ما كان يدعو إليه. أيضاً يركز النقد الثقافي على دور النص الفني وأهميته مشيراً إلى أن «النص الفني هو العمل الذي كل شيء فيه مهم بل ويلعب دوراً ولا شيء في العمل الفني هو من قبيل الصدفة.» (أرثر، ٢٠٠٣م: ٥٠) وهذه المؤهلات للنص الفني قد اجتمعت في قصائد أبي مسلم البهلاني حيث لم تكن عناصرها اعتبارية بل كانت كلها محبوكة بحبكة خبير يعي كيف يعمل على إيقاظ الشعور الديني والوطني والقومي في مخاطبيه و «كانت استنهاضات أبي مسلم الرواحي بمثابة لهيب الثورة ضد الاستعمار في منطقة الخليج كلها وكان لشعره وقع الصدى في نفوس أحرار شرق الجزيرة العربية من أدباء وكتاب وشعراء، فظهر له تلامذة يسيرون على نهجه في الدعوة إلى الحرية ووحدة شعوب الأمة العربية في مواجهة الاستعمار.» (عبد الخالق، ١٩٨٤م: ٣٥)

يلاحظ من خلال الأسلوب الخطابى لدى الشاعر فى جملة ما جاء به نسقاً مضمراً لأننا المتضخمة المتمثلة بالمسلم القوى الذى ينشد دينه عندما كان موحداً لم تترقه المذاهب والفرق إلى شيع، فيحاول البهلاني أن يذكر المسلمين بصورة الدين الأواحد وعبر التركيز على الذات المسلمة النافية للآخر.

إنَّ الأشعار الاستنهاضية التى يدعو فيها البهلاني، أبناء وطنه إلى اللحمة والوقوف فى وجه أطماع المستعمرين، تكشف عن دوره الاجتماعى فى الأحداث المهمة وفى الأوقات الحرجة التى عايشها وطنه عمان فى فترة تفككه وتعرضه للفتن والاحتلال والحروب. قد انعكس هذا الدور الاجتماعى فى النص الأدبى وبصبغة النسق الاجتماعى المضمير المغروس فيه، عن وعى الشاعر أو دونه.

نسق الترغيب إلى عمل الخير

احتل البهلاني مكانة رفيعة فى قلوب العمانيين ممّا جعلهم يحرسون على اقتناء ديوانه وحفظ أشعاره وتعليمها لأجيالهم، جيلاً بعد جيل ويرجع كل هذا الحب والإعجاب إلى

أنَّ الشاعر استطاع أن يوحد العمانيين بشعره على اختلاف مشاربهم، فهو رجل الدين الذي نال ثقتهم بتقواه وزهده وهو الوطني الذي أبى أن يسكت عن ظلم المستعمر المستبد تجاه وطنه وهو المربي المصلح الداعي إلى القيم والفضائل ومكارم الأخلاق ولهذه الأسباب كانت دعواته إلى فعل الخير مسموعة وصلاته في الحث على كل نبيلة مشهودة. قد منحت هذه المنزلة الاجتماعية، الشاعر روحاً نرجسية في خبايا أكثر مواعظه الشعرية في نسق فحولي أبوي، يرى الخير كله في اتباع ما يوصى به. استطرق البهلاني في نصه الوعظي إلى قضايا اجتماعية ودينية ظاهرة وهي التي تدخل في ضمن الأنساق القصصية المعلنة لدى الشاعر وفي الوقت نفسه عمل على تحميل نصه دلالات نسقية مضمرة دون شعور أو ربما عن وعي وكما قيل: «الدلالة النسقية تحتاج لذهن متوقد ورؤية عميقة للخطاب.» (خليل، ٢٠١٢م: ٣١) وهذه المقدرة في التمييز والتنقيب وإخضاع النص إلى جملة من الأنساق الجلية والخفية كانت متوفرة عند البهلاني وقد أشارت الكتب في سيرته عن موهبته، مدعنة بأن «الدخول إلى عالم أبي مسلم مغامرة لا يرومها ويقدر عليها إلا الحاذق الفطن ذو الموهبة الراسخة المتمكن من أدواته وقدراته.» (الحارثي، ٢٠١٠م: ٢٠) تمتاز الأشعار الوعظية عند البهلاني بالأنساق المشحونة من الحكمة ومنها:

صُكَّ الحُطُوبَ بِخُطْبِ إِسْمُهُ جَلْدٌ	وَالْقَ الْأُمُورَ بِحِلْمِ شَخْصُهُ جَبَلٌ
وَصَانِعِ النَّاسِ لَا نِكْسًا وَلَا مَلَقًا	بِمَا يَسْرُكُ مِنْ تَلْقَائِهِ الرَّجُلُ
وَالْبَسْ لِدَهْرِكَ إِنْ لَمْ تَرْكُ سِيرَتَهُ	مِنْ التَّجَمُّلِ مَا تَرْكُو بِهِ الْخِلْلُ
لَتَبْلُوَنَّكَ أَخْطَارٌ فَكُنْ خَطِرًا	يَكَادُ مِنْكَ فَوَادُ الدَّهْرِ يَنْذِلُ

(البهلاني، ١٩٢٦م: ٣١-٢٧)

يعتقد الغزامي أن الأنا الفحولية قد تتحوّل مع مرور الزمن إلى نسق ثقافي مترسخ في الوجدان الثقافي للأمة وهذا كان مشهوداً في طريقة خطاب البهلاني التي يستشعر المتلقى من خلال توظيف صيغ أفعال الأمر التي وردت ومنها (ألق وصانع وألبس وكُن) تضخماً للأنا الحكيمة إزاء الآخر الفاقد لتجربة الحياة. يرى الباحث نسقاً قد تجلّت الحكمة فيه، يوصى فيه البهلاني وفي نسق مضمّر للأنا المتعالية في مقابل الآخر

الذى يراهه الشاعر بحاجة ماسة لتعلّم التجلّد فى الحياة، يحثّه على الصبر وأن يقابل المشاكل والمصائب بعزم عظيم وصبر أعظم كأنّه جبل من العظمة، ويرى أنّه يجب على الإنسان أن يتسلّح بالصبر ضدّ الخطوب وشبه الخطوب بشئ يمكن أن يُحارب والحلم بالجبل. ينصح الشاعر الآخر على التعامل مع الناس بالحسنى ويستترشده ألا يذلّ لهم ولا ينافق بل يكنّ وسطاً، يعاملهم بما يجب أن يعاملوه به. يكثر من التركيز على لزوم الصبر يشرح للآخر أنّه إذا لم تعجبه حوادث الدهر بسبب ما فيها من مصائب، فعليه أن يتجملّ ويتّصف بالصفات الحسنة الجميلة وسوف تختبره الأخطار فى هذه الأيام. وفى موضع آخر يرسم نهجاً قوياً عبر النسق الاجتماعى قائلاً:

فَمَنْ لَمْ يَكُنْ بِالْعِلْمِ فِي النَّاسِ مَبْصِراً فَلَاعَاشٍ إِلَّا فِي الضَّلَالَةِ وَالْعَمَى
وَمَنْ لَا لَهُ مِنْ عِزِّ الْعِلْمِ نَسَبَةً فَلَيْسَ لَهُ إِلَّا إِلَى الذَّلَّةِ انْتِمَاً
وَمَنْ لَا لَهُ مِنْ ثَرْوَةِ الْعِلْمِ ثَرَوَةً فَمِنْ ثَرْوَةِ الدَّارِينَ قَدْ صَارَ مَعْدِماً
(البهلانى، ١٩٨٧م: ٢٨)

يُلاحَظ أنّ الشاعر يلجّ على تبين مقام العلم لإعطاء حكم عام وذلك عبر مفردة (من) وهذا الشعور ناتج عن النسق المضمر وهو نسق الغلو فى تعظيم وطغيان مكانة العلم وإقصاء الآخر الجاهل حتى وإن كان يتمتع بثروة المادة. يؤكد البهلانى أنّ ثقافة أرجحية العلم تمثّل نسقاً ثقافياً ساندته الدين الإسلامى وكانت غاية الشاعر من ذلك هو النهوض بواقع الإنسان المملّى بالتناقضات والسلبيات إلى عالم النور والمعرفة. إنّ الخطاب الشعرى فى هذه الأبيات تحكى عن نسق الاغترار بالأنا العالم وتمجيدها فى نسق معلن وفى نفس الوقت مستصغراً شأن الآخر المتباهى بثرواته المادية. يُستشعر من سياق خطاب الشاعر فى تكرار مفردة (مَنْ) نسقاً فحولياً، يظهر جلياً من حرص البهلانى على إرشاد الناس وكأنّه يقف على منبر أمام الآخرين المتعطّشين لعظاته الحكيمة الراشدة إلى الخير. يتجسّد النسق النفسى الاستعلائى من خلال نط الخطاب الذى يعبرّ فى الوقت نفسه عن النسق الاجتماعى للنص الأدبى، فوصية الشاعر بلزوم تعلّم العلم هى خطوة فى سبيل رقى المجتمع إلى كلّ ما هو أسمى وأعلى.

النتيجة

اتسم الخطاب الوعظي عند البهلاني بتوظيف الألفاظ الرقيقة والأكثر عذوبة وسلاسة بناء على الخلفية الدينية التي كان يتمتع بها الشاعر. خضعت لغته الوعظية لأسلوب الدفع والدفع المضاد وهي تُعتبر من أبرز سمات الخطاب الوعظي. تكشف لنا مواظ البهلاني عن قصدياته المعلنة والخفية في النص الأدبي وعلى وجود دلالات نسقية تشير إلى تدمير مبرر وتحسّر شديد في نفس الشاعر حيث يرى عدم اتعاض الكثير بحقيقة الدنيا الفانية وحتمية الموت وانقضاء الأجل.

يظهر ومن خلال النسق الوعظي الطاغى على أشعار البهلاني أنّ النسق الأبوي قد تملك الشاعر وكان مسيطراً على أفكاره ولذا فقد يُستشعر هذا النسق بصورة بارزة، وذلك بجعل الشاعر نفسه معلماً للآخرين وهادياً لهم للسير على الخطى القويمة. كأنّ الشاعر وعبر النسق الوعظي الذي يقوم به، يرى نفسه مثلاً للآخر ليقنّدي به ويحصل هذا الأمر عن طريق تكريس المحاسن لذاته ومذهبه من حيث لا يشعر، مما يكون بدوره خطاباً مهيمناً مشابهاً لخطاب السلطة وهذه الشاكلة تكشف عن الأنا المتضخّمة. إنّ القراءة المتعمّقة للنص في ضوء النقد الثقافي تكشف عن نسق فحولي وذلك أنّ الشاعر متمسك بأنّه المتعالية ولا يريد التحرّر منها مادام طامحاً أن يجعل من نفسه واعظاً ومعلماً يرسم الطريق للآخرين كي يسيروا عليه.

لقد سيطر النسق الفحولي والأبوي والأنوي على أفكار البهلاني في كثير من أشعاره الاعتبارية، كما أنّ الشاعر وربما عن غير وعى وظّف عقائده لتسريب النسق الإيديولوجي في النص الوعظي على حساب إلغاء الآخر وإثبات اعتباطية معتقداته. كان النسق الانكساري يربو على النسق الاستعلائي عندما يتعلق الأمر بجلد الذات وتوبيخ الأنا المقصرة، أمّا عند ذم الآخر الغافل فترى الغلبة للأنا المتعالية المخبوءة في النسق الفحولي، فكانت أسهم التوبيخ تترادف بصيغة المخاطب خاصة عند تكرار مفردة (ألا ترعوى) ممّا يبيح عن استفحال المبدع في سياق خطابه الوعظي.

جاءت نصائح أبي مسلم البهلاني الثرية بحكمها والغزيرة بتعايرها الراجحة، وقد عجن من الخطاب الوعظي والاعتباري في شعره والمنزلة العالية للذات معجوناً، يعبر

عن النسق الاستعلائي للشاعر تجاه المجتمع الذى يتفاعل معه.
كان النسق الصورى حاضراً فى التشبيهات الحسية التى استخدمها البهلانى فى أكثر
من موضع فى أشعاره الاعتبارية ليضع المتلقى فى الصورة المحسوسة والحقيقة الملموسة.

المصادر والمراجع

- أبو زيد، نصر حامد. (١٩٩٤م). نقد الخطاب الدينى. ط ٢. القاهرة: سينا للنشر.
- أيزابجر، أرثر. (٢٠٠٣م). النقد الثقافى. ت: وفاء، ابراهيم ورمضان بسطاويسى. ط ١. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.
- البهلانى، أبو مسلم. (١٩٢٨م). ديوان أبى مسلم البهلانى. ط ١. القاهرة: المطبعة العربية بمصر.
- _____ (١٩٨٧م). ديوان أبى مسلم البهلانى. ط ١. مسقط: وزارة التراث القومى والثقافة.
- _____ (٢٠١٥م). الموسوعة الشعرية لأبى مسلم البهلانى شرح راشد بن على الدغيشى. ط ١ ج ٢-١ مسقط: مكتبة الضامرى للنشر والتوزيع.
- بركة، فاطمة الطبال. (١٩٩٣م). النظرية الألسنية عند رومان جاكوبسون. ط ١ بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
- الحارثى، محمد. (٢٠١٠م). الآثار الشعرية لأبى مسلم البهلانى. ط ١. بغداد: منشورات الجمل.
- خليل، سمير. (٢٠١٢م). النقد الثقافى. ط ١. بغداد: دار الجواهرى.
- السالمى، عبد الرحمن وآخرون. (٢٠١٢م). الخطاب الدينى فى شعر أبى مسلم البهلانى الرواحى. ط ٢. سلطنة عمان: وزارة الأوقاف والشؤون الدينية.
- السماهيجى، حسين وآخرون. (٢٠٠٣م). عبدالله الغدّامى والممارسة النقدية والثقافية. ط ١. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- العانى، سامى مكى. (١٩٩٦م). الإسلام والشعر. ط ١. الكويت: عالم المعرفة.
- عبدالله، عبد الرحمن. (٢٠١٣م). النقد الثقافى فى الخطاب النقدى العربى. ط ١. بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة.
- عبد الخالق، على. (١٩٨٤م). الشعر العمانى "مقوماته واتجاهاته وخصائصه الفنية". ط ١. القاهرة: دار المعارف.
- الغدّامى، عبدالله، عبد النبى، اصطفى. (٢٠٠٤م). نقد ثقافى أم نقد أدبى. ط ١. دمشق: دار الفكر.
- الغدّامى، عبدالله. (٢٠٠٥م). النقد الثقافى "قراءة فى الأنساق الثقافية العربية". ط ٣. دار البيضاء: المركز الثقافى العربى.

- _____ (٢٠٠٦م). تشريح النص. ط٢. المملكة المغربية: المركز الثقافي العربي.
- _____ (١٩٩٣م). ثقافة الأسئلة. ط٢. الكويت: دار سعاد الصباح.
- قنصوة، صلاح. (٢٠٠٧م). تمارين في النقد الثقافي. ط١. القاهرة: دار ميريت.
- كويزل، ايديت. (١٩٩٣م). عصر النبوية. ترجمة: جابر عصفور. ط١. الكويت: دار سعاد الصباح
- المحروقي، محمد بن ناصر. (٢٠٠٠م). الشعر العماني الحديث. ط١. دار البيضاء: المركز الثقافي العربي.
- محمد، سراج الدين. (١٩٨٧م). الزهد في الشعر العربي. ط١. بيروت: دار الراتب الجامعية.
- المصباحي، عبد الرزاق. (٢٠١٥م). النقد الثقافي من النسق الثقافي إلى الرؤيا الثقافية. ط١. بيروت: مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع.
- ناصر، محمد بن صالح. (١٩٩٦م). أبو مسلم الرواحي "حسان عمان". ط١. عمان: مكتبة مسقط.
- هيكل، سمير. (٢٠١٢م). تأثيرات أندلسية في شعر أبي مسلم الرواحي "جوانب أدبية وفنية مقارنة". ط١. مسقط: لانا.

المجلات

- إبراهيم، مجدى حاج، المحروقي، سعيد بن حمد. (٢٠٢٠م). «دلالة الاستفهام في شعر أبي مسلم البهلاني». مجلة الدراسات اللغوية والأدبية. السنة ١٢. العدد ١. صص ٨٩-٦٥.
- إبراهيمي، خديجة. (٢٠٢٠م). «تلقى النص الشعري من منظور النقد الثقافي». مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية. السنة ١٣. العدد ٢. صص ٩٦-٦٩.
- تومي، سعيدة، قط البشير، مصطفى. (٢٠٢١م). «تمثلات النسق في الفحولة الشعرية قراءة نقدية ثقافية من منظور عبدالله الغدامي». مجلة إشكالات اللغة والأدب. السنة ١٠. العدد ١. صص ٢٩٩-٢٨٣.
- جابر، ناصر. (٢٠٠٧م). «التناص القرآني في الشعر العماني الحديث». مجلة جامعة النجاح للأبحاث. السنة ٢١. العدد ٤. صص ١٠٩٦-١٠٨٠.
- زينة، حمزة شاكر. (٢٠١٦م). «الانساق الثقافية في رواية (فاليوم عشرة)». مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية. العدد ٢٩. صص ٥٦٩-٥٦٠.
- عجيل، جمال، نرجس، حسين. (٢٠١٨م). «كتاب النقد الثقافي لعبدالله الغدامي قراءة في المصطلح». مجلة الأستاذ. العدد ٢٢٧. صص ٢٣٢-٢١٤.
- الغدّامي، عبدالله. (٢٠٠٢م). «النقد الثقافي». مجلة النقد الأدبي فصول. العدد ٥٩. صص ٥٣-٤٥.
- محمد، أحمد علي. (٢٠٠٣م). «الانحراف الأسلوبى في شعر أبي مسلم البهلاني». مجلة جامعة دمشق. السنة ١٩. العدد ٣. صص ١٠٥-٥١.